جيتى فى أحاديثه مع إكرمان

فى أدب الغرب كتابان جليلان لهما أثر بالغ ومكانة سامية فى نفوس نقاد الأدب ودارسيه ومتذوقيه أحدهما كتاب «حياة جونسن» الذى كتبه «بوزويل» والذى يجمع نقاد الأدب الإنجليزى على أنه أعظم ترجمة لحياة رجل فى الأدب البريطانى قاطبة ، والآخر كتاب «أحاديث جيتى مع إكرمان» وقد قال عنه الفيلسوف الألمانى الأديب النقادة «نيتشه» إنه خير كتاب فى اللغة الألمانية .

وهذان الكتابان كلاهما من ثمرات الإعجاب الصادق ، والولاء العميق . والإخلاص المحض ، وقد كان بوزويل – على مارمى به من الحمق والطيش وسوء الخلق – من أشد الناس إعجاباً بالكاتب النقادة «جونسن» ، وأحرصهم على تتبع أخباره ، واقتفاء آثاره ، وجمع أحاديثه ورسائله ، وأرواهم لشوارد خطراته ولوامع لمحاته ، وأقواهم إحساساً بقوة أجوبته المفحمة ، وردوده الحاسمة .

وكان إكرمان كذلك فى طليعة المعجبين بشخصية جيتى وعبقريته ، وأدبه وحكمته ، وقد وجد جونسن فى شخص بوزويل المترجم المثالى لحياته ، لأنه يكتب عنه فى حب وعطف وتقدير وإعجاب ، ويصور حياته فى مختلف ظلالها ومتباين حالاتها ، كما أصاب جيتى فى إكرمان خير من يروى عنه أحاديثه ومتناثر آرائه وأحكامه فى دقة وأمانة وإخلاص ووفاء .

وقد رفع تحرى الصدق وفائض العطف وبراعة الفن هذين الكتابين إلى أسمى مستويات التأليف الأدبى ، ومن حسن حظ جيتى وتوفيق جونسن أن أتيح

لكل منهما من يترجم لحياته ، وينقل أحاديثه فى حسن تبصر ، وجودة أختيار ، والكثيرون من كبار كتاب الغرب وعظماء المفكرين لم يظفروا بمن يحسن الكتابة عنهم . ويجيد نقل أحاديثهم ، ومن دواعى هذا الحظ الحسن الذى كان من نصيب جونسن وجبتى أن كلا من بوزويل وإكرمان أطال صحبة صاحبة الذى أعجب به وأكبر شأنه حتى نشأت بينهما ألفة وصداقة ومعرفة صميمة .

وفى الحالتين نرى الرجل العظيم محتفظاً بتفوقه وتساميه ، ونرى صاحبه المفتون به أو تلميذه المتواضع معجباً به ، متفانياً فيه ، لا يخالجه أدنى شك فى امتيازه وتفوقه ، ولا يصرفه صارف من الإهتمامات الدنيوية عن موالاة هذا الإعجاب والبقاء على العهد .

ويلحظ قراء كتاب بوزويل ولعه بكشف عيوب نفسه وإظهار نواحى ضعفه ولذلك لم ير بأساً فى أن يسجل بعض ما كان يوجهه إليه صاحبه من قوارص الكلم ولواذع التأنيب ، وكأنه أراد بذلك أن يذكر لنا أن أستاذه العظيم كان فى بعض المواقف لا يستطيع أن يكبح جماح نفسه ، أو يلطف من حدة لسانه .

وقد ظن بعض النقاد أن نجاح بوزويل فى ترجمته لحياة جونسن هذا النجاح المنقطع النظير فلتة من فلتات الحظ ، ولكن[١] النقد الحديث قدر مواهب بوزويل ، ونوه ببراعة الطريقة التى اتبعها فى كتابة الترجمة ، وأشاد بتجويده الفنى فى رسم تلك الصورة الحية القوية لصاحبه من رسائله وأحاديثه ، ومواقفه وأفعاله ، وأكد بوجه خاص قدرة بوزويل الفائقة على اختيار الحوادث الدالة والأخبار الموحية فى حياة جونسن ، والكلمات المعبرة التى تكشف عن

(١) راجع ما كتبه فى هذا الصدد هارولد نيكلسون فى كتابه عن تطور كتابة التراجم فى الأدب الإنجليزى من صفحة ٦٤ إلى صفحة ١٠٨ .

خصائصه الفكرية ، ونزعاته الأخلاقية .

أما إكرمان فقد حفظ لنا طائفة كبيرة من آراء جيتى فى الأدب والحياة والتاريخ والدين والسياسة والإجتماع والفلسفة والعلم والفن ، وتقديره للكثيرين من معاصريه فى المانيا وسائر الدول الأوربية من كبار المؤلفين ونوابغ الكتاب والشعراء والعلماء وغيرهم ممن تقدم بهم الزمن فى مختلف الأمم والأقطار .

ويرى بعض النقاد الذين يؤبه بهم ويعنى بآرائهم مثل الناقد الألمعى « ماثيو أرنولد » ومثل المفكر البحاثة « هافلوك إليس » أن كتاب أحاديث جيتى مع إكرمان أدل على أدب جيتى وثقافته وعميق نظراته وسامى حكمته من سائر مؤلفاته ، والجميل فى الأمر أن هذين الأثرين الأدبيين الخالدين كما قدمت من ثمرات الحب والإعجاب ، ونتائج الوفاء والولاء والإخلاص .

* * *

وإكرمان الذى سأنقل عنه بعض الأحاديث التى رواها عن جيتى رجل عصامى بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ، ويستحق أن يعرف القراء شيئاً عن تاريخ حياته ، وأخبار كفاحه النبيل ، وما بذل من جهد وأتى من أعمال .

ولد فى ألمانيا بإحدى البلاد الصغيرة القريبة من مدينة همبرج لأسرة رقيقة الحال سنة ١٧٩٢ ، وتحمل المشاق ليحصل على نصيب محدود من التعليم ، وأصبح بعد ذلك معلم نفسه ، وكان يقيم أوده ويستعين على تكاليف الحياة بالإشتغال فى وظائف صغيرة الشأن لا تدر عليه سوى القليل من المال الذى لا يكاد يفى بحاجاته المتواضعة القليلة .

وأفضى به التطواف فى طلب الرزق إلى مدينة هانوفر ، وكانت حينذاك مركزاً لحركة أدبية ناشطة ، ونهضة علمية واعية ، وقد أتاح له ذلك الفرصة لإنماء معلوماته وتوسيع ثقافته ، وصقل مواهبه الفنية .

وكان قد تطوع قبيل ذلك فى جيش التحرير الذى حارب نابليون ، وزار مدينة بروكسل وشاهد بها آثار المصور روبنز الفنية ، وأعجب بها غاية الإعجاب وملك عليه الإعجاب نواحى نفسه ، وزين له أن يعالج التصوير ، ولكن حبه للشعر والنقد كان أغلب وأشد تأصلاً فى نفسه ، فقد أظهر فيهما تفوقاً وامتيازاً ولكن ملكاته الأدبية بوجه عام لم تكن تؤهله لتسنم القمة العالية . وبلوغ الشهرة الواسعة .

وبرغم الظروف المادية التى قاساها فى تلك الأيام كان لا يفتأ يردد قوله «إنى أجاهد من أجل الثقافة لا فى سبيل الحصول على الخبز . وكل ميسر لما خلق له : والفن هو غذائى» وقد ظل طوال حياته محتفظاً بحماسته للأدب والفن ، وبرغم ما لقى من شدائد الفقر والمرض وإهمال مواطنيه لأمره وغضهم من شأنه فإنه لم يحد عن خطته ، ولم يغير مثله الأعلى .

وقد قرأ مؤلفات «شلر» وأعجب به ، وتحمس له فى بادئ الأمر ولكن بعد أن اطلع على مؤلفات جيتى مال إليه ، وانجذب نحوه ، وقوى إعجابه به حتى أصبح إعجاباً عاصفاً غلاباً يكتسح فى طريقه كل شىء . ويستغرق نفسه كل الإستغراق .

وقد كتب فى هذه الفترة يقول «لاأقرأ شيئاً ، ولا أفكر فى شىء سوى جيتى ، وأينما ذهبت وحيثما أقمت أو انتقلت أو اشتغلت بشؤونى اليومية فهو دائماً حاضر فى فكرى ، وحتى فى المنام يطرق أحلامى» وكان من الأيام المأثورة فى حياته يوم حصوله على صورة لجيتى معبوده بعد عناء طويل ، وجهد كبير !

وفى سنة ١٨٢٣ وهو فى السنة الأولى بعد الثلاثين من عمره وصل إلى ويمار وحظى بالمثول بين يدى جيتى ، وكان جيتى حينذاك فى الرابعة بعد السبعين من عمره ، والظاهر أن إكرمان جاء فى الوقت المناسب . فما إن رآه جيتى حتى

حسن موقعه عنده ، فأحسن لقاءه ، وقربه واصطفاه ، وقد أدرك جيتى من فوره ببديهته الواعية ، وبصيرته النافذة الصفات البارعة الكامنة فى هذا الشاب الهادئ الوديع المتماسك الرزين .

وأصبح إكرمان من ألزم الناس له ، وألصقهم به ، وأرواهم عنه ، وبعد أيام من اللقاء أشار عليه جيتى بالبقاء فى ويمار ، فسكن إكرمان إلى مشورته واستمع لنصيحته ، وبقى إلى جانبه ينعم بصحبته ، ويأنس بوضاءة تفكيره وثقوب عقله ، وعميق حكمته ، وطويل تجربته ، وجيد خبرته ، حتى لفظ جيتى آخر أنفاسه وانتقل إلى العالم الآخر سنة ١٨٣٢ .

* * *

وقد اتسعت شهرة جيتى فى السنوات الأخيرة من حياته ، وطبق ذكره الآفاق ، وكان الزائرون من مختلف الأقطار يفدون إلى ويمار لمشاهدة حكيمها المشهور وشاعرها العظيم ، وتقديم آيات الولاء والإعجاب بأدبه وشخصيته ، ولكن لم يستطع أحد من الشعراء البارزين والمؤرخين الأعلام ، وسائر العلماء والمفكرين والفلاسفة الذين زاروا ويمار وحظوا برؤية الشاعر الحكيم ، وسمعوا صوته وأصغوا لحديثه ، أن يقدم للأجيال التالية صورة دقيقة صادقة معبرة ناطقة كالصورة التى قدمها لنا هذا الرجل المتواضع البسيط ، المرهف الحس ، الرضى النفس ، الذى ظهر من غمار الشعب ، وقهر الظروف غير المسعفة بقوة إرادته وصدق إخلاصه ، ونادر وفائه .

والجميل فى الصورة التى قدمها لنا أنه لم يسئ فيها إلى الحق مع مراعاته لشرائط الفن ، والكثيرون من الذين يريدون أن يعرفوا جيتى أوفى معرفة لا يكتفون بالرجوع إلى «فاوست» و«ولیم مايستر» وغيرهما من روائعه ، وإنما يلتمسون معرفته فى الأحاديث التى جمعها إكرمان بحسن اختياره ، وقدرته

الفنية التي تساقطت دونها قدرات غيره من الكتاب والدارسين ، وأهلته لأن يذكر اسمه مع اسم جيتى على مدى الدهور .

وقد مات إكرمان فى ديسمبر سنة ١٨٥٤ مهملاً منسياً مخذولاً من مواطنيه ومن الظروف التى اكتنفته ، ولكن اعتباره رد إليه بعد ذلك ، وتولى أحد الأساتذة كتابة تاريخ حياته ، ونقلت الأحاديث التى جمعها إلى أكثر اللغات الحية ، واستفاضت شهرته . ولن يستطع النسيان بعد ذلك أن يتغلب عليه ويعصف بذكراه .

وكان إكرمان يطلع جيتى على الأحاديث بعد كتابتها ، والراجح أنها أعدت تحت إشرافه ، ولو أنه لم يسمح بتقديمها للطبع فى حياته .

وكانت الأحاديث تتناول فى بعض الأحايين مسائل عادية مألوفة ، وفى أحيان أخرى تدور حول مشكلات فكرية دقيقة ، وقضايا أدبية وفنية هامة ، وكان جيتى فى الكثير من تلك الأحاديث يرسل نفسه على سجيتها ، ويفتح مغاليق قلبه ، ويترك تحفظه المعتاد .

ويصف لنا إكرمان علاقته بجيتى فى خلال تلك الأحاديث فيقول «كانت علاقتى به علاقة خاصة ، علاقة جد صميمة ، كانت علاقة التلميذ بأستاذه ، والابن بأبيه ، والفقير الثقافة بالغنى الثقافة ، وقد اجتذبنى إلى حلقة أصدقائه وجعلنى أشارك فى المتع العقلية والجسدية لحياة أسمى مستوى وأعلى ، وفى بعض الأوقات كنت لا أراه سوى مرة فى الأسبوع حينما كنت أزوره فى المساء ، وفى أوقات أخرى كنت أراه كل يوم وأحظى بتناول طعام الغداء معه منفردين أو مع جماعة من عارفيه ، وكما كان يتحرى الإيجاز والدقة فى كتاباته فكذلك كان فى أحاديثه ، وفى لحظات سعيدة كان يفقد سيطرته على نفسه وتنطلق منه الكلمات كالماء المندفع من الشلال ، وكان يصدق عنه ما قاله مارمونتل عن ديدرو وهو

«أن الذى يعرفه من كتاباته يعرفه نصف معرفة ، وأنه كان حينما تشتعل حماسته فى الحديث يصبح لا نظير له ، ولا يستطيع سامعوه مقاومة تأثيره» وأتركه يصف لنا لقاءه الأول لجيتى يوم ١٠ يونيو سنة ١٨٢٣ فى ويمار .

«وصلت هنا منذ أيام قلائل ، ولكنى لم أرجيتى إلا اليوم ، وقد تلقانى بالبشر والإيناس ، وجعلنى أشعر بأن هذا اليوم من أسعد أيام حياتى ، وحينما مررت بالأمس لأسأل عنه حدد لى اليوم الساعة الثانية عشرة ، وقد ذهبت إليه فى تلك الساعة ، ووجدت خادماً ينتظرنى ليوصلنى إليه ، وقد ترك فى نفس مدخل المنزل أثراً ساراً ، فكل شئ عليه طابع البساطة المتناهية والنبل ، وحتى السبائك المأخوذة من التماثيل القديمة الموضوعة على السلالم كانت تدل على تعلق جيتى بالفنون التشكيلية وحبه لليونان القديمة ، ورأيت سيدات كثيرات منهمكات فى العمل بالجزء الأسفل من المنزل ، وأحد ولدى أوتيليا (زوجة ابن جيتى) الجميلين ، وقد اقترب منى وحدق إلى فى ألفة ، وبعد أن ألقيت نظرة على ما حولى أرتقيت السلالم ومعى خادم ثرثار إلى الطابق الأول ، وفتح لى باب حجرة كتب على مدخلها «مرحباً» وكان ذلك فألا حسناً للقاءالودى ، وقادنى من هذه الحجرة وفتح باب حجرة أخرى أرحب منها وطلب إلى الانتظار ، وكان الهواء بها بارداً منعشاً ، وقد فرشت على أرضيتها سجادة ، وكان بالحجرة أريكة قرمزية ومقاعد تجعل منظرها مما يشرح الصدر ، وفى أحد الأركان وضع بيان ، وكانت الحوائط محلاة بصورة كثيرة ورسومات ، وفى الناحية المقابلة كان يوجد باب مفتوح يوصل إلى حجرة أخرى مزدانة كذلك بالصور ، وقد دخل الخادم من هذا الباب ليعلن قدومى .

وبعد قليل حضر جيتى وهو يرتدى قباء أزرق اللون وينتعل حذاء ، وكان وقور الطلعة مهيب المنظر ، وسرعان ما أزال عنى ما غشينى من الاضطراب

بكلماته التى تقطر عطفاً ، وجلسنا معاً على الأريكة ، وأخذتنى حيرة مستعذبة عقدت لسانى وملكت على بيانى فلم أستطع أن أقول شيئاً يذكر .

وبدأ الحديث عن المخطوط الذى أرسلته إليه ، قائلا «لقد جئت توا من عندك ، وقد قضيت فترة الصباح جميعها فى قراءة مخطوطك ، وهو ليس بحاجة إلى المدح ، إنه يثنى على نفسه بنفسه» ، وامتدح وضوح الأسلوب ، وتدفق الفكرة ونوه بخاصة قيامها على أساس متين قد أجيد درسه ، وحسن تقديره ، وقال «وسأرسله قريبا جداً وسأكتب إلى كوتا اليوم بالبريد وأرسل إليه الطرد غدا» .

وتحدثنا عن الرحلة التى كنت أنتوى القيام بها ، وقلت له إن خطتى الذهاب إلى منطقة الراين حيث أعتزم الإقامة فى مكان مناسب وكتابة شىء جديد ، ومهما يكن من الأمر فإنى سأذهب أولا إلى ينا وأنتظر رد الهرفون كوتا» .

وسألنى جيتى «أتعرف أحداً فى ينا ؟» فأجبته إنى آمل أن أتصل بالهرفون كنبل فوعدنى بكتاب يضمن لى لقاء حسناً ، وقال «حينما تكون فى ينا سنكون جارين متقاربين ونستطيع أن نتراسل أو يرى أحدنا الآخر كما نريد» .

وجلسنا طويلا معاً فى هدوء يفيض عطفاً ، ونسيت أن أتحدث لأنى عقدت به ناظرى ، ولم تشبع عيناى من النظر إليه ، ووجهه قوى أسمر ، قد امتلأ بالتجاعيد والغضون ، وكل تجعيدة حافلة بالتعبير ! وكان يتحدث فى تؤدة واتزان كما كان ينتظر من ملك قد تقدمت به السن ، واطمأن إلى مكانته ، وارتفع فوق مستوى المدح والذم ، وشعرت بتلك الراحة التى يستشعرها الذى تتحقق أمنيته بعد الجهود الشاقة والانتظار الطويل .

وتحدث بعد ذلك عن كتابى إليه ، وأبدى ملاحظة مضمونها أن الذى يستطيع أن يتناول موضوعاً بوضوح يصلح لأشياء كثيرة غيره ، ثم ذكر لى

ما على أن أراه فى ويمار ، وقال إنه يريد أن يكون السكرتير كرونر مرشدى ودليلى ، وأن على أن أرى قبل كل شىء المسرح ، وسألنى عن محل إقامتى قائلا إنه يريد أن يرانى مرة أخرى ، وإنه سيرسل لى فى الوقت المناسب ، وودع كل منا الآخر وداعاً حاراً ، وشعرت بأنه أحبنى» .

وفى اليوم التالى أرسل إليه جيتى بطاقة مكتوبة بخطه يطلب فيها حضوره ، ولما لبى الدعوة عهد إليه جيتى فى مراجعة بعض فصول فى النقد كتبها فى ميعة الشباب وسأله أن يبدى رأيه صلاحيتها للنشر بعد الاطلاع عليها وإجالة الفكر فيها ، وقال له إنه قد بعد عهده بها حتى أصبح لا يستطيع تقديرها والحكم عليها ، وإن إكرمان بوصفه شاباً وعارفا باتجاهات الشبان يستطيع أن يقدر مجاراتها لروح العصر أو مخالفتها لها . ، وذكر له أنه مزمع الذهاب إلى مارينباد ، وأنه يسره بقاؤه فى ويمار إلى حين عودته ، ولما عاد جيتى من مارينباد فى شهر سبتمبر أشار على إكرمان بالبقاء فى ويمار وقضاء الشتاء بها ، وأجابه إكرمان بأنه سينزل على رغبته ويبقى إلى جانبه ، وأخذت تتوالى زياراته لجيتى واجتماعه به ، وتطرد الأحاديث والمحاورات .

ففى مساء يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٨٢٣ مثلا دعا جيتى جماعة من أصدقائه إلى حفلة شاى فى منزله ، وحضر الحفلة إكرمان ، وجرى الحديث بين الزائرين ومضيفهم طلقاً عذباً ، وكانت السيدة فون جيتى زوجة نجله حاضرة ، وقد أخبره إكرمان من قبل عن حبه للمسرح ، وشدة حرصه على حضور حفلات التمثيل ، فأقبل عليه جيتى ومعه زوجة نجله ، وقال له «السيدة زوجة نجلى ، فهل يعرف كل منكما الآخر؟» .

فأجابه إكرمان «لقد تم تعارفنا منذ هنيهة» .

فقال جيتى لأوتيلى زوجة نجله «إنه مثلك مغرم بالمسرح» والتفت إليه وقال

«إن ابنتى لا يفوتها حضور المسرح كل مساء» .

فقال إكرمان «هذا حسن ما دامت المسرحية التى تقدم جيدة ، أما إذا كانت رديئة فإن ذلك يمتحن صبرنا» .

فأجابه جيتى «ولكن الشيء الحسن أنك لاتستطيع مبارحة المسرح ، وعليك أن تسمع وترى ما هو ردىء ، وبهذه الوسيلة تنفذ إلى داخل نفسك كراهة الردىء ، وتصير أعرف بمواطن الإجادة فى الشيء الجيد ، وهذا لا يحدث فى القراءة فإنك تلقى بالكتاب بعيداً إذا كان لا يعجبك ، ولكن فى المسرح عليك أن تصبر» .

وفى يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٨٢٣ دون فى يومياته ما يأتى ، وقد رايت نقله لغرابته ودلالته : —

«منذ بضعة أيام مضت كنت أسير عصراً قاصداً إرفرت وقد صفا الجو ، وطاب الهواء ، وكان يسير فى الطريق نفسه رجل قد تقدمت به السن ، وظننت من مظهره أنه من المواطنين الأثرياء ، وبعد أن سرنا قليلا لم ألبث أن سألته «أتعرف جيتى ؟» فأجاب فى سرور «أعرف جيتى ؟ لقد كنت خادمه الخصوصى قرابة عشرين عاماً» وأفاض فى الثناء على سيده السابق ، فطلبت إليه أن يسمعنى بعض أخبار جيتى فى شبابه ، فوافق على إجابة طلبى فى ارتياح وقال «أول ما عشت معه ربما كانت سنة لا تتجاوز السابعة بعد العشرين ، وقد كان نحيفاً خفيف الحركة أنيقاً رشيقاً ، وكان فى وسعى أن أحمله فى سهولة بين ذراعى» فسألته هل كان جيتى فى هذا الجزء الباكر من حياته عظيم المرح موفور السرور ؟ فأجابنى» بالتأكيد كان دائماً مسروراً محبوراً مع المسرورين المحبورين ، ولكنه لم يكن يشاركهم فى ذلك حينما يتجاوزون حداً معيناً ، ففى هذه الحالة كان يصير جاداً ، وكان دائم العمل والبحث ، وعقله دائم الاشتغال بالفن

والعلم ، وهكذا كانت حياة سيدى وكان الدوق (دوق ويمار) يزوره عادة فى المساء ، ويتبادلان الحديث فى الموضوعات العلمية حتى ساعة متأخرة ، ولذلك كان يستولى على التعب وأعجب متى ينصرف الدوق ، وحتى فى ذلك الوقت كان معنياً بالعلوم الطبيعية ، وقد دق الجرس مرة فى منتصف الليل ، ولما دخلت حجرته وجدته قد نقل فراشه الحديدى إلى جانب النافذة ، وكان مستلقياً به وهو يجيل طرفه فى السماء ، وسألنى أرأيت شيئاً فى السماء ؟ ولما أجبته إننى لم أر شيئاً أمرنى أن أذهب إلى منزل الحراسة وأسأل القائم بالحراسة هل رأى شيئاً ، فذهبت إليه ، وقال لى الحارس إنه لم ير شيئاً ، وعدت إلى سيدى أحمل هذا الرد ، وكان لا يزال فى مكانه مستلقياً فى فراشه ، مرسلا نظره إلى السماء ، فقال لى «استمع ، إنها لحظة هامة ، فالآن تزلزل الأرض زلزالها ، أو إن الزلزال سيحدث قريباً» ثم جعلنى أجلس على الفراش إلى جانبه ، وأرانى العلامات التى عرف بها ذلك» .

فسألت الرجل الطيب «وكيف كانت حالة الجو؟» .

فأجاب «كان الجو ممتلئا بالسحب حاراً هادئاً» .

وسألته «هل صدقت أن هناك زلزالا تبعاً لكلام جيتى ؟» .

فأجاب «نعم ، صدقت ذلك لأن الأشياء كانت تحدث كما كان يسبق به قوله عن حدوثها ، وفى اليوم التالى روى ملاحظاته لرجال البلاط ، فهمست إحدى السيدات لجارها قائلة «إن جيتى يحلم» ولكن الدوق والحاضرين جميعهم صدقوا جيتى ، وتأكدت ملحوظاته ، لأنه بعد أسابيع قلائل جاءت الأخبار بأن جزءاً من مدينة مسينا خربه الزلزال فى تلك الليلة» .

وفى لقائه لجيتى مساء يوم ١٤ نوفمبر سنة ١٨٢٣ يروى لنا إكرمان ضمن إحدى مروياته ما يأتى : —

«فى الساعة الثامنة مساء انصرف المستشار «رهبين» وهممت بالانصراف ولكن جيتى أشار على بأن أبقى قليلا ، فجلست ، ودار الحديث عن المسرح وعن تمثيل مسرحية «ولنستاين» فى الغد ، وهيأ ذلك الفرصة للتحدث عن «شلر» فقلت «عندى شعور خاص نحو شلر ، وقد قرأت بعض مشاهد دراماته العظيمة بحب خالص وإعجاب ، ولكن سرعان ما كان يصادفنى شىء يخالف صدق الطبيعة فأتوقف ولا أستطيع المضى ، وإنى أشعر بذلك حتى فى أثناء قراءتى لمسرحية ولنستاين ، ولا يسعنى إلا الظن بأن اتجاه شلر إلى الفلسفة أضر بشعره ، لأنه جعله ينزل الفكرة منزلة أعلى من منزلة الطبيعة ، وهو فى الحقيقة يقضى بذلك على الطبيعة ، فما يتصوره لابد أن يحدث سواء كان متفقاً مع سننها أو كان مخالفاً لها» .

فأجاب جيتى قائلا «كان من المحزن أن نرى رجلا سامى المواهب مثل «شلر» يضنى نفسه بالبحوث الفلسفية التى لا تفيده بأى حال من الأحوال ، وقد أطلعنى «همبولدت» على رسائل بعث بها إليه شلر فى الأيام غير المباركة التى شغل نفسه فيها بهذه الأفكار . وفى هذه الرسائل نرى كيف كلفت نفسه عناء رغبته فى فصل الشعر العاطفى عن الشعر البسيط الساذج ، ولما لم يجد الثرى المناسب للشعر العاطفى سبب له ذلك حيرة ما بعدها حيرة» .

واسترسل جيتى يقول باسماً «كأن الشعر العاطفى يمكن أن يكون له وجود قائم بذاته على غير أساس البساطة والسذاجة اللتين تنبعث منهما جذوره» واستمر يقول «لم تكن خطة شلر أن يجرى على سجيته فى أعماله الأدبية ، وكان يضطر إلى إجالة الفكر فى كل ما يعمل ، ومن ثم كان لا يفتأ يتحدث عن مشروعاته الشعرية ، وهكذا بحث معى مسرحياته الأخيرة مشهداً بعد مشهد ، ومن ناحية أخرى كان مما ينافر طبيعتى التحدث عن خططى الشعرية مع أى إنسان حتى مع

شلر نفسه ، وكنت أحمل كل شيء داخل نفسي فى صمت ، وفى العادة لم يعرف أحد أى شيء عنه حتى ظهوره مكتملا ، ولما أطلعت شلر على قصة « هرمن ودورثيه » بعد أن تمت عجب لذلك ، لأنى لم أذكر له حرفا واحداً منها فى أثناء تأليفها ، وإنى أترقب ما ستقوله غداً عن مسرحية « ولنستاين » وسترى صوراً نبيلة ، وستترك المسرحية فى نفسك أثراً لا تحلم به » .

* * *

وفى يوم ٢ من شهر يناير سنة ١٨٢٤ تناول إكرمان طعام الغداء مع جيتى ، وجرى الحديث سلساً شائقاً ، وورد خلاله ذكر حسناء غضة السن فى مجتمع ويمار ، وذكر أحد الحاضرين أنه كاد يهيم بحبها ، ولو أنه إذا تحرى الدقة لا يستطيع أن يقول إنها لامعة الذكاء ، فضحك ، جيتى وقال «كأن الحب له علاقة بالذكاء ! إن الأشياء التى نحبها فى الحسناء الشابة تختلف الاختلاف كله عن الذكاء ، إننا نحب فيها الجمال والشباب وأن تكون لعوباً شكلة عطوفاً ونحب فيها أخلاقها وشمائلها وأخطاءها ونزواتها ، وفضلا عن ذلك ما لا يعلم إلا الله من أمرها ، ولكننا لانحبها من أجل ذكائها ، ونحن نحترم ذكاءها إذا كان لامعاً ، والذكاء يعلى قيمتها فى أعيننا ، وهو يجدى فى تثبيت عواطفنا حينما يكون الحب قد تمكن منا ، ولكن الذكاء ليس هو الذى يشعل قلوبنا ويثير أهواءنا » .

ودار الحديث بعد تناول الغداء عن الأدب الإنجليزى وعظمة شكسبير ، والموقف غير الملائم لمؤلفى الدراما الإنجليز الذين ظهروا بعد هذا العملاق الشاعر .

وقال جيتى « إن أى موهبة درامية لها نصيب من الأهمية لا تستطيع أن تغفل مؤلفات شكسبير ، بل لا تستطيع أن تغفل دراستها ، وصاحب هذه الموهبة

لابد أن يدرك بعد هذه الدراسة أن شكسبير قد استوعب الطبيعة البشرية بجميع اتجاهاتها من الأعالى والأعماق ، وأنه لم يغادر شيئاً ليقوم به القادم بعده ، وكيف يتشجع القلم ويجرى على الطرس وهو يدرك ويقدر كل التقدير أن مثل تلك المؤلفات البارعة التى لا يسبر عمقها ولا يدرك مداها قد وجدت !

« ومنذ خمسين سنة كنت أحسن حظاً فى ألمانيا العزيزة . فقد استطعت أن أفرغ فى سرعة من كل ما كان موجوداً ، ولم يعد يخيفنى أو يشغل التفاتى . وسرعان ما تركت الأدب الألمانى خلفى ، وتحولت إلى الحياة والإنتاج ، وسرت فى نموى الطبيعى ، ولم يكن معيارى فى كل خطوة من الخطوات أسمى مما كنت أستطيع بلوغه عند تلك الخطوة ، ولكنى لو كنت قد ولدت إنجليزيا ، وكانت كل هذه الطرائف الفنية المتعددة فى قوتها أمامى حين إسفار فجر وعيى وأنا شاب لعرتنى الحيرة ، ولم أعرف ما أستطيع أن أصنع ولغلبتنى على أمرى » .

وعاد إكرمان إلى الحديث عن شكسبير قائلا « حينما نستخلص شكسبير من الأدب الإنجليزى ونعتبره قد نقل إلى الأدب الألمانى تبدو لنا عظمته كأنها معجزة ، ولكن الاقتراب منه يبدو ممكنا إذا درسناه فى ثرى بلاده ، وجو القرن الذى عاش فيه ، وبين معاصريه وخلفائه المباشرين : بن جونسن وماسنجر ومارلو وبومنت وفلتشر ، والكثير يمكن أن نرده إلى جو عصره القوى الإنتاج » .

فعاد جيتى إلى الحديث قائلا « إنك على حق ، إن حالة شكسبير تشبه جبال سويسرة ، وأنت لو نقلت « مونت بلانك » إلى سهل « لونبرج هيت » الواسع لما وجدنا ألفاظا نعبر بها عن دهشتنا من ضخامته ، ولكن التمسه فى دياره الهائلة واذهب إليه من فوق جيرانه الشوامخ يونجفراو وفنسترارهورن وإيجر وترهورن وسنت جوتارد ومونت روزا فإنه فى هذه الحالة سيظل مونت بلانك ضخما عملاقا ولكنه لا يحدث فى نفوسنا مثل هذه الدهشة » .

وتطرق الحديث إلى ذكر رواية «أحزان ورتر» فقال جيتى «إن هذه القصة مؤلف غذيته بدم قلبى ، وقد ضمنتها الكثير مما اختلج فى صدرى ، وجال فى أعماق نفسى إلى حد أنه يمكن أن يبسط ما بها فى رواية تبلغ عشرة أضعاف حجمها ، وفضلا عن ذلك فإنى لم أقرأها منذ ظهورها سوى مرة واحدة ، وقد تحريت ألا أعود إلى قراءتها ، لأنها كتلة من الأسهم النارية ، والنظر إليها يثير ثائرى ، وإنى أخشى أن تعاودنى الحالة العقلية الخاصة التى كانت باعث كتابتها» .

وسأله إكرمان «هل يعزى التأثير العظيم الذى أحدثته رواية «ورتر» إلى الوقت الذى ظهرت فيه؟» واسترسل يقول «إنى لا أستطيع قبول هذا الرأى برغم كثرة شيوعه ، لقد أحدثت رواية ورتر تأثيراً عظيماً لأنها ظهرت ، لا لأنها ظهرت فى وقت معين ، وفى كل عصر من العصور الكثير من الحزن الذى لم يجد معبراً عنه ، والكثير من النقمة الخفية على الحياة والتبرم بها ، وبين الأفراد المنفردين والدنيا الكثير من أسباب الخلاف والشقاق ، وهناك صراع بين طبائعهم والشرائع المدنية إلى حد أن رواية ورتر تحدث التأثير العظيم نفسه لو كانت قد ظهرت اليوم لأول مرة» .

فأجابه جيتى قائلا «لقد أصبت الصواب ، ومن أجل هذا لا يزال الكتاب يؤثر فى قرائه من الشبان فى سن معلومة تأثيره السابق ، ولم يكن هناك ما يدعو إلى أن أستنتج أن الانقباض الذى استولى على فى الشباب سببه التأثير العام للعصر وقراءتى لبعض المؤلفين الإنجليز ، وإنما كان سببه ظروفاً خاصة مباشرة بلغت من نفسى مبلغاً ، وعركتنى عركاً شديداً حتى أسلمتنى إلى الحالة العقلية التى أنتجت ورتر ، وقد عشت وأحببت وشقيت كثيراً ، وهذا كل ما فى الأمر. وحينما ننعم النظر فى وقت كتابة ورتر الذى كثير عنه الحديث سيتضح لنا

أنه لا يتصل بسير الثقافة العامة ، وإنما يرتبط بسير حياة كل فرد له غريزة حرة كامنة يجد نفسه مضطراً إلى الملاءمة بين نفسه وبين الحدود الضيقة لعالم عتيق ، والحظ العاثر والنشاط المكبوت والرغبات التي لم تتحقق ليست كوارث عصر معين ، وإنما هي كوارث حياة كل إنسان : ومن الأمور السيئة حقاً ألا يعرف كل إنسان مرة فى حياته فترة يظهر له فيها أن رواية ورتر كتبت له وحده» .

* * *

وفى يوم ٤ من يناير سنة ١٨٢٤ أدار جيتى الحديث عن نفسه فقال «مهما يكن من الأمر فإن ديدنى الرفق والاعتدال ، ولو أنى عبرت عن كل ما يغضبنى ويؤلم نفسى لأصبحت الصفحات القليلة مجلداً ضخماً : ولم يرض الناس عنى الرضاء التام ، وكانوا دائماً يريدوننى أن أكون على خلاف ما خلقنى الله ، وقليلا ما كانوا يرضون عن مؤلفاتى ، وحينما كنت أبذل أقصى جهدى لأهدى إلى الدنيا مؤلفاً جديداً كانت لا تزال تطلب من أن أشكرها فضلا عن ذلك لاعتبار هذا المؤلف من الأشياء التى كتب لها البقاء ، وإذا أثنى على إنسان لم يكن يسمح لى بأن أتلقى هذا الثناء على أنه تقدير أستحقه ، وكانوا ينتظرون منى تعبيراً متواضعاً يتضمن أنتقاصى لشخصى والزراية بمؤلفى ، ولكننى كنت أكون منافقاً تعساً إذا حاولت الكذب والرياء ؛ ولما كنت من القوة بحيث أظهر نفسى على حقيقتها كما أشعر فقد وصفونى بالكبرياء ؛ ولا أزالا حتى اليوم أعد متكبراً .

وقد استدرجت المتاعب إلى نفسى فى مسائل الدين والعلم والسياسة . لأنى لم أكن منافقاً ، وكانت عندى الشجاعة لأعبر عما أشعر به .

وقد آمنت بالله وبالطبيعة وبانتصار الخير على الشر ، ولكن هذا لم يكف الاتقياء الصالحين ، وطلب منى أن أصدق بأشياء تناقض شعور نفسى بالحق فضلا عن أنى كنت لا أرى فيها أية فائدة لى .

وحقيقة أنني لا يمكن أن أكون صديقاً للثورة الفرنسية ، لقد كانت فظائعها جد قريبة مني وكانت تهز نفسي كل يوم بل كل ساعة . ولم تكن فوائدها قد ظهرت حينذاك ، ولم يكن في وسعي أن أقف موقف غير المكترث تلقاء جهود الألمان ليوجدوا هنا بطريقة مصطنعة مثل تلك المشاهد التي كانت في فرنسا نتيجة لضرورة قاهرة . ولم أكن كذلك من أنصار الحكم المطلق ، ولقد كنت مقتنعاً الاقتناع كله بأن الثورة الواسعة النطاق ليست من خطأ الشعب ، وإنما سببها خطأ الحكومة ، والثورات لا يمكن أن تقوم ما دامت الحكومات تلتزم سبيل العدل ، ولا تأخذها سنة من النوم ، وبذلك تستطيع أن تسبق الثورات بعمل الإصلاحات اللازمة في الوقت المناسب ، ولا تتلكأ في القيام به حتى تضطرها الظروف إلى الخضوع تحت ضغط الشعب ، ولأنني كنت أكره الثورة الفرنسية قيل عني إنني من أنصار النظام القائم ، وهو لقب شديد الغموض أرفضه ، ولما كان إلى جانب الكثير من الصالح النافع الكثير من السيئ الضار الظالم الناقص فإن لقب صديق النظام القائم معناه في الغالب صديق القديم البالي والردئ الضار .

ويسترسل جيتي في الحديث فيقول : « وفضلا عن ذلك كله فإنه لاشيء يصلح لأمة من الأمم إلا إذا كان نابعاً من صميمها وحاجاتها العامة دون محاكاة فردية لغيرها من الأمم ، وماقد يصلح غذاء لفريق من الناس في سن خاصة قد يكون سماً لغيرهم ، وجميع المحاولات لاستجلاب نظم جديدة أجنبية لم تنشأ الحاجة إليها في صميم الأمة تعد من الحماقة ، وجميع الثورات التي يتم إعدادها على هذا النمط تمنى بالإخفاق لأن الله الذي لا يرضيه مثل هذا الاعتساف لايرضى عنها ، وحينما توجد ضرورة حقيقية تستحث الناس على طلب الإصلاح العظيم يكون الله في جانب هذا الإصلاح ولذلك يتحقق ، وواضح أن الله كان

مع المسيح وأنصاره الأولين لأن ظهور فكرة الحب الجديدة كان لازما للناس ، ولا خفاء أن الله كان مع لوثر لأن تطهير العقيدة التى أفسدها القساوسة كان من الضرورات » .

وفى الحديث الذى جرى يوم ٢٧ يناير سنة ١٨٢٤ قال جيتى متحدثاً عن نفسه « حينما أتلفت إلى الوراء وأعيد النظر فى حياتى الباكرة وأيام الشباب وانتقل إلى عهد الشيخوخة أفكر فى قلة عدد الباقين من الذين كانوا معى فى نضارة الشباب وتبدو لى الحياة كأنها نزل صيفى فى أحد أمكنة الاستحمام ، فحينما نصل نصادق الذين قضوا هناك بعض الوقت والذين سيبرحون بعد أسابيع قلائل ، ويؤلمك ارتحالهم ، وتتحول إلى الجيل التالى الذى تظل معه حيناً من الدهر وتقوى الصلات بينك وبينه ، ولكن هذا الجيل كذلك يذهب ويتركك وحيداً مع الجيل الثالث الذى يجىء ونحن نهم بالرحيل والذى لا يكون بيننا وبينه أية علاقة » .

ويمضى فى الحديث قائلا « ولقد عددت دائماً من هؤلاء الذين حباهم الحظ واختصهم بعطاياه ، ولست أشكو حياتى ، ولا أبحث فى سيرها عن العثرات ، ولكن من الحق أن أقرر أننى لم ألق سوى النصب والهم ، ويمكننى أن أقول إننى فى خلال الخمسة والسبعين عاماً التى عشتها لم ألق الراحة الخالصة شهراً واحداً ، ولقد كانت كلها دحرجة للحجر الذى كان على أن أعاود رفعه ، ويومياتى التى أكتبها ستكشف عما أقول ، ولقد كانت هناك مقتضيات كثيرة من الخارج والداخل تفرض على بذل الجهد ، ولقد كانت سعادتى الحقة فى تأملاتى الشعرية وإنتاجى ، ولكن وضعى الخارجى كان يعترض ذلك ويحصره ويحد منه ، ولو أنى استطعت أن أعفى نفسى من الأعمال العامة معظم وقتى وأن أعيش فى عزلة أكثر أيامى لكنت أسعد ، ولاستطعت – باعتبارى شاعراً – أن أنجز

أكثر مما أنجزت ، ولكن بعد أن أتممت مسرحية جوتز ورواية ورتر صدق على قول الحكيم « إذا صنعت شيئاً من أجل الدنيا فإنها ستعمل على ألا تمكنك من أن تصنعه مرة ثانية » والشهرة الواسعة والمكانة العالمية من الأشياء المقبولة ولكن برغم مكانتى وشهرتى لا أزال مضطرًا إلى عدم التصريح برأيى فى الآخرين خشية الإساءة إليهم » .

وفى يوم ٢٥ من فبراير سنة ١٨٢٤ تحدث جيتى عن عصره فقال : « لقد كان من عظيم حظى أن عشت فى وقت حدثت فيه أعظم حوادث هزت العالم ، وقد تتابعت هذه الحوادث خلال حياتى الطويلة : وقد شاهدت حر ا السنوات السبع وانفصال أمريكا عن إنجلترا ، والثورة الفرنسية ، وعصر نابليون جميعه ، وحصلت على نتائج وتجارب لـلأمور ونظرات نفاذة غير ميسور للذين يولدون فى هذه الأيام أن يحصلوا على مثلها ، وعليهم أن يتعلموا أمثالها من الكتب التى سوف لا يفهمونها ، ولست أدرى ما الذى ستجىء به السنوات القادمة ، ولكننى أخشى أننا سوف لا نتنعم بالراحة ، والقناعة ليست من حظ الدنيا ، والعظماء ليسوا ممن لا يسيئون استعمال القوة ، والجماعات لا تقنع بالأحوال المتوسطة المعتدلة معلقة أملها على التحسن التدريجى ، ولو أننا استطعنا أن نكمل الطبيعة الإنسانية لتوقعنا أن تسير الأحوال إلى الكمال ، ولكن مادامت الطبيعة الإنسانية على حالها فسيظل هناك تردد من هنا إلى هناك ، ولابد أن يشقى قوم ويسعد آخرون ، وسيظل الحسد والأثرة يعملان عملهما مثل الشياطين الأشرار وسيظل الصراع الحزبى بغير نهاية ، وأهدى الطرق أن يقوم كل إنسان بالوظيفة التى ولد لها وتعلمها ، وأن يتحاشى اعتراض طريق الآخرين والحيلولة بينهم وبين أداء وظيفتهم » .

وضمن روايته لأحاديث جيتى يوم ٢٦ فبراير يقول إكرمان « قال لى جيتى

من عهد قريب إن الشاعر المطبوع يعرف الدنيا بفطرته ، وهو ليس فى حاجة إلى تجارب كثيرة أوملاحظات منوعة ليصورها تصويراً صحيحاً ، لقد كتبت مسرحية جوتزفون بر ليخنجن فى الثانية بعد العشرين ، وبعد مرور عشر سنوات أدهشنى ما بها من صدق التصوير ، ولم أكن قد جربت أو رأيت شيئاً من هذا القبيل ، ولذلك لابد أن أكون قد حصلت على معرفة الأحوال الإنسانية المختلفة سلفاً ، وإنى بوجه عام لا أجد متعة إلا فى تصوير عالمى الداخلى قبل أن أعرف شيئاً عن العالم الخارجى ، ولكن حينما كنت أجد فى الحياة الواقعية أن الدنيا كانت فى الحقيقة كما توهمتها كان ذلك يضايقنى ويجعلنى لا أشعر بسرور فى تصويرها ، وحقيقة أنى أستطيع أن أقول إننى لوكنت انتظرت حتى أعرف الدنيا قبل أن أصورها لكان تصويرى لها عبثاً لا طائل فيه » .

ويقول إكرمان إن جيتى عاد إلى تأكيد ذلك مرة أخرى فقال « فى طبيعة كل إنسان ضرورة خاصة تبدو فى تتابع أعماله وتنشأ عنها سمات ثانوية إلى جانب هذه السمة الرئيسية أو تلك ، والملاحظة تجعلنا نعرف ذلك ، ولكن بعض الناس يعرفون ذلك بالفطرة ، ولا أريد أن أبحث هل المعرفة اللدنية والخبرة قد اتحدتا فى نفسى ، ولكننى أعرف أننى إذا تحدثت مع أى إنسان مدة ثلث ساعة فإنى أستطيع أن أدعه يتحدث مدة ساعتين » .

واستدرك إكرمان على جيتى قائلا « إذا كنت سعادتك ترى أن الشاعر يولد وفى نفسه صورة للدنيا فإنك تقصد بطبيعة الحال العالم الباطنى لاعالم المظاهر والتقاليد . وإذا كان الشاعر يصور هذا أيضاً فإن معرفة العالم الواقعى لازمة » .

فأجاب جيتى « بالتأكيد ، إن عالم الحب والكراهية والأمل واليأس أو ما تطلق عليه أى اسم من حالات الروح وميولها كامن فى نفس الشاعر . وهو يوفق فى تصويره ، ولكنه لا يعرف بالفطرة كيف تعقد اجتماعات حاشية الملك

أوكيف تسير مجالس النواب أوكيف تقام حفلات التتويج ، وإذا كان لايريد أن يسىء إلى الحق فى تناوله لأمثال هذه الموضوعات فإن عليه أن يرجع إلى التجربة والتقاليد المرعية » .

وينهى جيتى حديثه فى هذا الصدد قائلا : « لو لم يكن العالم فى نفسى عن طريق الاستشفاف لظللت أعمى له عينان ينظران ولكانت كل تجاربى وملاحظاتى عملا غير مجد ، فالضوء هناك والألوان من حولنا ، ولكن إذا لم يكن هناك ضوء ولا ألوان فى عيوننا لما أبصرنا العالم الخارجى » .

* * *

وفى يوم ٣٠ مارس سنة ١٨٢٤ دار الحديث حول مسائل أدبية شتى ، وعرض ذكر الكاتب الألمانى لدفيج تيك فقال جيتى « إنى أشعر بالعطف الشديد على تيك ، وأكبر ظنى أنه كذلك يضمر لى الود ، ومع ذلك ففى علاقتى به ماكان يجب ألا يكون ، وليس سبب ذلك خطأ من جانبى أو من ناحيته ، وإنما باعث ذلك أسباب بعيدة عنا كل البعد ، فحينما بدأ الأخوان فردريك شلجل ووليام شلجل فى أن يوجدا لنفسيهما أهمية كنت قوياً عليهما ، ولم يكن فى وسعهما أن يبلغا منى مبلغا ، فاضطرا إلى أن يبحثا عن رجل له مواهب ليصنعا منه معارضاً لى ومناظراً ، فوقعا على تيك . وكان فى مرجوهما أنه متى وضع أمامى ظهرت له أهمية كافية فى عين الجمهور ، وبذلك اضطرا إلى أن يصنعا منه شيئاً أكثر من حقيقته ، وأفسدا بذلك العلاقة بينى وبينه ، لأن تيك وضع فى مركز زائف بالقياس إلى دون أن يدرك ذلك ، وتيك له مواهب عظيمة الأهمية ، وليس هناك أحد أعرف بمزاياه الباهرة منى ، وغاية مافى الأمر أنهما حينما يرفعانه فوق مكانته ويضعانه فى مستوى واحد معى يتورطان فى الخطأ ، وأنا أقول ذلك صراحة وفى غير جمجمة ، ولا يهمنى شىء ، فإننى لم أخلق

نفسى ، وقياساً على ذلك قد أقرن نفسى بشكسبير ، وهو كذلك لم يصنع نفسه ؛ ولكنه مع ذلك مخلوق من طراز أسمى ، وعلى أن أنظر إليه فى احترام وإكبار » .

وفى يوم ١٤ إبريل سنة ١٨٢٤ زار إكرمان صاحبه جيتى ، وتبادلا الحديث عن أساليب الكتاب المختلفين ، وقال جيتى فى أثناء هذا الحديث « التفكير الفلسفى بوجه عام قد أضر بالألمان ، لأنه جعل أسلوبهم غامضاً صعباً غير واضح ، وكلما قوى اتصالهم ببعض المدارس الفلسفية الخاصة ازداد أسلوبهم رداءة ، ورجال الأعمال من الألمان الذين انصرفوا إلى الحياة العملية أحسن الألمان أسلوباً وأسلوب شلر أنبل وأبلغ ما يكون حين يترك التفلسف ، والإنجليز فى الغالب يجيدون الكتابة لأنهم يولدون خطباء ورجالا عمليين مع ميل إلى الواقع ، والفرنسيون فى أسلوبهم يظلون أوفياء لطبيعتهم ، فطبيعتهم اجتماعية ولذلك لاينسون الجمهور الذى يخاطبونه ، وهم يجاهدون فى سبيل الوضوح لكى يقنعوا القارئ ، ويحرصون على أن يكون أسلوبهم مرضياً لكى يدخلوا السرور عليه ، وأسلوب الكاتب بوجه عام صورة أمينة لعقله ، فإذا أراد إنسان أن يكتب فى أسلوب واضح فعليه أن يكون أولا واضحاً فى أفكاره ، وإذا أراد أن يكتب فى أسلوب نبيل فليكن أولا نبيل النفس » .

وانتقل جيتى إلى الحديث عن خصومه فقال « إن عددهم ضخم ، ولكن يمكن إلى حد ما تقسيمهم إلى طبقات ، فهناك أولا من بينى وبينهم خصومه سببها غباؤهم ، وهؤلاء لا يفهموننى وينسبون إلى عيوباً دون أن يعرفونى ، وقد أتعبتنى كثيراً هذه الطبقة الكبيرة فى سير حياتى ، ولكنى سأصفح عنهم ، لأنهم لايدرون ما يصنعون ، والطبقة الثانية وهى كثيرة العدد كذلك مكونة من هؤلاء الذين يحسدوننى ، وهم ينفسون علىّ حظى والمكانة التى بلغتها مواهبى ، وهم

يعملون على إخماد شهرتى وهدمى ولو كنت فقيراً وبائساً لما هاجمونى .

وكثيرون ناصبونى العداء لأنهم أخفقوا ، وفى هذه الطبقة رجال لهم مواهب طيبة ، ولكنهم لايستطيعون أن يسامحونى لأنى أخملتهم .

والطبقة الرابعة هؤلاء الذين يكرهوننى لأسباب أخرى ، فأنا بشر مثل سائر الناس ، وفى عيوب الإنسانية ومواطن الضعف ، ولا يمكن أن يخلو ما أكتبه من ذلك ، ولكنى كنت دائماً أعمل على إصلاح عيوبى ، واستدراك وجوه النقص ، وأجاهد لأشرف وأسمو ، وكنت فى حالة تقدم مستمر ، وكان كثيراً ما يحدث أن ألام على أخطاء قد أصلحتها وتجاوزتها ، ورجال هذه الطبقة لم يصبنى منهم سوى اليسير من الضرر ، وذلك لأنهم كانوا يسددون إلى الطلقات بعد أن أكون قد صرت على بعد أميال ، وهناك طبقة كبيرة تقف منى موقف الخصومة لأنها تختلف عنى فى نظراتها ووجوه تفكيرها ، ويقال عن أوراق الأشجار أنك قل أن ترى بينها ورقتين متشابهتين تمام الشبه ، وكذلك بين آلاف الرجال يندر أن ترى اثنين تتفق آراؤهما وأساليب تفكيرهما كل الاتفاق ، ولما كان الأمر كذلك فإنه يلزم أن يكون عجبى من كثرة خصومى أقل من عجبى من كثرة الأصدقاء والأنصار ، وقد كانت اتجاهاتى مخالفة لاتجاهات عصرى ، كانت اتجاهات عصرى ذاتية وكنت بجهودى الموضوعية أقف منفرداً ، وكان ذلك يقيم فى طريق العقبات ، وكان شلر من هذه الناحية يتفوق على تفوقاً كبيراً ، ومن ثم صارحنى أحد القواد الحسنى النية بأن على أن أحذو حذو شلر فى الكتابة ، فأجبته بتحليل مزايا شلر لأنى كنت أعرف بها منه ، وسرت فى طريق هادئاً مطمئناً دون أن أجشم نفسى العناء فى سبيل النجاح أو أشغل بالى بخصومى » .

ولما حدث الحريق الذى طاح بمسرح ويمار ليلة ٢٢ مارس سنة ١٨٢٥ دار

الحديث عن ذكريات هذا المسرح الذى قام على جهود جيتى وشلر ، وسأله إكرمان قائلا « لابد أنك تستشعر السرور العظيم فى إدارتك للمسرح ونجاحك الباهر » فأجابه جيتى متنهداً « واحتملت غير القليل من التعب والمصاعب » فأجابه إكرمان « لابد أنه كان من الصعب أن تحافظ على النظام فى هذا الكائن ذى الرؤوس المتعددة » .

فأجابه جيتى قائلا « يمكن أن يتم الكثير باصطناع الشدة ، ولكن يمكن أن نعمل أكثر من ذلك بالحب ، ولكن الجزء الأكبر يتم بالتصبر وتحرى العدالة التى لا تحابى أحداً ، وكان على أن أحذر عدوين كان يخشى من خطرهما على ، أحدهما حبى الشديد للنبوغ الذى كان ربما يجعلنى أتشيع ، والعدو الآخر لا أذكره لك ولكن يمكنك أن تحزره ، وكان بمسرحنا سيدات كثيرات وكن جميلات وشابات ، وكانت لهن مواهب عقلية ساحرة ، وشعرت بميل شديد نحو الكثيرات منهن . وحدث فى بعض الأوقات أن بعضهن قابلننى فى منتصف الطريق . ولكنى كبحت جماح نفسى . وقلت لها « مكانك ! لا تتقدمى أكثر من ذلك » ، وكنت أعرف مركزى وما على نحوه ، فإن الأمر هناك لم يكن من شؤونى الخاصة وإنما كنت مشرفاً على مؤسسة نجاحها أعظم أهمية من إطفاء غليل شهوة من الشهوات الوقتية ، ولو كنت وقعت فى حبائل مسألة غرامية لكنت أصبحت مثل البوصلة التى لا تتجه الاتجاه الصحيح حينما تكون أحد جوانبها تحت تأثير المغناطيس ، وهكذا باحتفاظى بحريتى وبقائى مسيطراً على نفسى ظللت سيد المسرح ، وكنت على الدوام أتلقى الاحترام الذى بدونه تنتهى كل سلطة » .

ويعلق إكرمان على هذا الحديث قائلا « لقد أثر فى نفسى تأثيراً بالغاً اعتراف

جيتي هذا ، وكنت قد سمعت عنه أشياء من هذا القبيل من آخرين ، وسرني أن أسمع الآن تأكيد ذلك من فه » .

وفي يوم ٢٧ إبريل سنة ١٨٢٥ عاد جيتي إلى التحدث عن علاقته بالشعب وما ابتلي به من سوء الفهم في هذه الناحية فقال « من المسائل المفروغ منها الآن أنني لست صديقاً للشعب ، ولا أعرف أنني تحالفت يوماً مع أحد ضد الشعب ، وحقيقة أنني لست صديقاً للغوغاء الثائرة التي تقصد السلب والنهب والقتل والتخريب والهدم ، والتي تتظاهر بالحرص على الصالح العام لتخفي أحط الأغراض الأنانية ، وأني لست صديقاً لمثل هؤلاء القوم كما أني لست من أنصار لويس الخامس عشر ، وأني أمقت كل انقلاب عنيف لأنه يقضي على أشياء صالحة نافعة بقدر ما يجيء به من الخير والنفع ، وأكره الذين يقومون به كما أكره الذين كانوا السبب في وقوعه فهل أعد من أجل ذلك عدواً للشعب ؟

وهل هناك رجل سليم العقل يرى خلاف ذلك ؟ وقد قيل أكثر من ذلك وهو أنني خادم الأمراء وعبدهم . . فإذا كنت عبداً لـلأمير فعلى الأقل مما يعزيني أني مازلت عبداً لأمير هو نفسه عبد للمصلحة العامة » .

وقد كان جيتي من كبار شعراء الإنسانية ، ولم يكن مع ذلك مزهواً بقدرته في الشعر ، وكان يرى أن ملكة الشعر ليست مقصورة على الشعراء ، ففي خلال أحاديثه مع إكرمان يوم ٣١ يناير سنة ١٨٢٧ يقول « يزداد اقتناعي أكثر فأكثر بأن الشعر مشاع بين النوع الإنساني ، وهو يتجلى في كل مكان وبكل عصر في مئات المئات من الناس ، وأحد الناس يتفوق على الآخر في قرض الشعر ويسبح على سطحه إلى مساحة أطول مما يستطيعه غيره ، وعلى الهرفون ماثيسون ألا يظن أنه وحده الرجل وعلى كذلك ألا أعتقد أنني الرجل ؛ وعلى كل منا أن يقول

لنفسه إن موهبته ليست بحال من المواهب الشديدة الندرة ، وإن على الإنسان ألا يبالغ فى حسن الظن بنفسه لأنه نظم قصيدة جديدة » .

وفى يوم ١٦ ديسمبر سنة ١٨٢٨ تحدث جيتى حديثاً حكيماً عن الطرافة فى الأدب ، قال « يلغط الألمان متحدثين عن بعض الأشعار التى ظهرت مطبوعة فى مؤلفات شلر وفى مؤلفاتى ، ويتوهمون أن مسألة التيقن من أينا نظم هذه الأشعار مسألة ذات بال ، وكأن هناك فائدة وراء هذا البحث ، وصديقان مثل شلر ومثلى عاشا سنوات متلازمين متحابين متحدى الاهتمامات يتبادلان الأفكار والآراء والفوائد لاشك فى أن حياتهما تتداخلان وتتشابكان بحيث يصبح من الصعب أن تميز فكرة أحدهما من فكرة الآخر ، ولقد نظمنا معاً كثيراً من المقطوعات الشعرية ، وفى بعض الأوقات كنت صاحب الفكرة وكان شلر ينظمها شعراً ، وفى أوقات أخرى كان الأمر على عكس ذلك ، وفى بعض الأحيان كان ينظم بيتاً من الشعر وكنت أنظم البيت الثانى ، فماذا يهم فى معرفة مالى وماله ؟ إن السخفاء هم الذين يعلقون على مثل هذه المسألة أدنى أهمية » .

فقال إكرمان « فى بعض الأحيان يحدث فى عالم الأدب شىء متشابه لذلك فمثلا عندما يشك الناس فى طرافة هذا الرجل المشهور أو ذاك ، ويجتهدون لمعرفة المصدر الذى استمد منه ثقافته » .

فأجاب جيتى « شىء مضحك ، ويجوز لنا أن نسأل إذاً الرجل القوى البنية عن الثيران والأغنام والخنازير التى أكلها وأمدته بالقوة ! إننا نولد ولنا مواهب واستعدادات ، ولكننا مدينون بنمونا الخاص لآلاف من مؤثرات العالم العظيم الذى نأخذ منه مانستطيع وما يلائمنا ، وأنا مدين بالكثير لليونان والفرنسيين ، وعلى دين كبير لشكسبير وستيرن وجولدسمث .

ولكنى بهذا القول لا أكشف عن مصادر ثقافتى فإن هذا عمل لاينتهى

ولا حاجة إليه ، والمهم أن يكون للإنسان روح تهوى الحق وتستوعيه أينما وجدته وفضلا عن ذلك فإن الدنيا الآن قديمة .

وقد عاش الكثيرون من الرجال الأعلياء وأعملوا فكرهم آلاف السنين ولم يبق إلا القليل ليكشف ويعبر عنه ، وحتى نظريتى فى الضوء ليست جديدة كل الجدة ، فقد سبقنى أفلاطون وليوناردو دافنشى وكثيرون غيرهما إلى التعبير عنها فى صورة موجزة ، وكل مالى من الفضل هو أننى عثرت عليها كذلك وأعدت الحديث عنها ، وأنى جاهدت لإظهار الحق فى عالم اختلط فيه الحابل بالنابل ، ولابد أن يكرر إظهار الحق مرة بعد أخرى ، لأن أنصار الباطل يعاودون إذاعته ، ولا يقوم بذلك الأفراد وحدهم بل الجماعات كذلك ، فى المجلات والموسوعات وفى المدارس والجامعات وفى كل مكان يسود الخطأ ويشعر بالطمأنينة لوجود الأغلبية فى جانبه » .

والظاهر أن مسألة الطرافة فى الأدب وغير الأدب كانت تشغل بال جيتى كثيراً فقد تحدث عنها ضمن أحاديثه مرة أخرى فقال « يتحدث الناس كثيراً عن الطرافة ولكن ماذا يعنون بذلك ؟ إننا حالما نولد تبدأ الدنيا تؤثر فينا ويستمر هذا التأثير إلى النهاية ، وماذا غير نشاطنا وقوتنا وإرادتنا نستطيع أن ندعى ملكيته ؟ إننى لو قدمت الحساب عما أدين به لأسلافى العظماء ومعاصرى ما بقى لى سوى رصيد ضئيل » .

وتناول هذا الموضوع فى حديث آخر قال فيه « نحن فى الواقع خلائق مجمعة مشتركة لأنه ما أقل ما نملك ، وما أقل ما نكون ، وما ندعيه لأنفسنا ! وكلنا لامحيص لنا عن أن نتلقى ممن سبقونا وممن هم معنا ونتعلم منهما ، وحتى العبقرى الذى يحاول أن يكون مديناً بكل شيء لنفسه لا يجيء بطائل ، ولكن كثيرين من الناس الطيبين جداً لا يفهمون ذلك ويتحسسون فى الظلام نصف حياتهم

بأحلامهم عن الطرافة ، وقد عرفت فنانين كانوا يفخرون بأنهم لم يتبعوا أستاذاً لهم ، وأنهم مدينون لعبقريتهم بكل شيء فياللسخف !

وكأن هذا ممكن على الإطلاق ، وأستطيع أن أتحدث عن نفسي وأقول فى تواضع ما أشعر به . وحقيقة أننى فى حياتى الطويلة قد أنجزت أشياء كثيرة أستطيع بكل تأكيد أن أفخر بها ، ولكنى لم أكن مديناً بأعمالى لحكمتى الخاصة وحدها وإنما كنت مديناً لآلاف الأشياء والأشخاص حولى ، فقد أمدونى بالمادة ، وكان هناك حمق وحكماء وأصحاب عقول مستنيرة وأصحاب عقول ضيقة محدودة .

وكان هناك أطفال وشبان وناس بلغوا سن النضج . والجميع كاشفونى بأفكارهم وحدثونى كيف عاشوا وعملوا وعن التجارب التى اكتسبوها ، ولم يكن فى وسعى سوى أن أبسط يدى وأحصد مازرعه الأغيار لى » .

ولم يكن جيتى ممن يرتاحون لفكرة انغماس الشعراء فى السياسة والمسائل الحزبية ، ومن أقواله فى هذا الصدد ضمن الأحاديث التى دارت بينه وبين إكرمان خلال سنة ١٨٣٢ قوله « الشاعر الذى يشغل بالساسية يسلم نفسه لأحد الأحزاب ، وحينما يفعل ذلك يصبح غير شاعر إذ عليه أن يودع حريته ويتخلى عن نزاهة التفكير ويأخذ بذناب التعصب والكراهة العمياء . والشاعر باعتباره رجلا ومواطناً يحب وطنه ، ولكن وطن مواهبه الشعرية وأعماله الشعرية هو الطيب والنبيل والجميل ، وهى ليست وقفاً على إقليم أو مصر من الأمصار ، وهى ضالته أينما وجدها ، وهو فى ذلك مثل النسر الذى يحلق حر النظر من فوق مختلف الأقطار ولا يعنيه أكان الأرنب الذى ينقض عليه يجرى فى الأراضى البروسية أو فى أرض سكسونيا . وما معنى حب الإنسان لبلاده ؟ وما مفهوم الأعمال الوطنية ؟ وإذا كان الشاعر قد قضى حياته فى محاربة الأفكار الضارة

ونبذ الآراء الضيقة وتنوير العقول وصقل الأذواق والسمو بعواطف مواطنيه فماذا يستطيع أن يفعل أحسن من ذلك ؟ وهل فى الوسع أن يقوم بعمل وطنى أكثر من هذا ؟»

* * *

وأختم هذه الأحاديث المختارة برأى جيتى فى خلود النفس ، وقد ورد فى خلال الأحاديث التى دارت بينه وبين إكرمان يوم ٢ مايو سنة ١٨٢٤ ، وكان جيتى قد دعاه ليصحبه فى جولة بعربته فى ضواحى ويمار ، وكانت الأشجار قد ازدهرت وتبدت فى حفل زينتها ، وأرسلت الشمس الغاربة أشعتها الذهبية على المراعى الخضر ، وأخذ جيتى يرقب غروبها وقد استغرق فى التفكير . ثم استرسل يقول لإكرمان وقد بدا عليه السرور والارتياح «فى الخامسة بعد السبعين يفكر الإنسان فى الموت بطبيعة الحال بعض الأحيان ، ولكن هذه الفكرة لا تقلق بالى ، لأنى أعتقد اعتقاداً راسخا أن الروح لا تفنى وأن نشاطها يستمر من الأبد إلى الأبد ، وهى مثل الشمس التى تبدو لعيوننا الأرضية غاربة ، ولكنها فى الواقع لا تغرب ولا تغيب وإنما تضىء بغير انقطاع» .

* * *

وبعد فهذه طائفة قليلة من أحاديث جيتى ، وهى غيض من فيض كتاب إكرمان الحافل العامر ؛ وقد لا تكون خير ما فيه ، ولكنها على أية حال تدل على اتجاهه ، وتكشف عن معدنه ، وتنم على مكانته بين كتب أحاديث العظماء الخالدين وقادة الفكر الممتازين ، وترينا صورة جيتى فى مرآة أمينة صافية وتوضح لنا جوانب شتى من ثقافته وفلسفته وحكمته .